



التشكلات التاريخية والإستراتيجية بعد "ذي قار"

زادت الثقة العربية ورفعت مستوى الإحساس بالقوة في ظل وحدة اللحمة

لا تقتصر أهمية دراسة البيئة الاستراتيجية التي أحاطت بمعركة ذي قار باعتبارها مواجهة عسكرية عادية مجردة، يمكن أن تدخل في إطار التحليل التكتيكي للمعارك، وإنما باعتبار انعكاساتها القوية على اعتلاء العرب (الحاضنة الأولى للإسلام) لمكانة السيادة في المنطقة، خاصة بعدما أعزهم الله بدين الإسلام وبخاتم الأنبياء وسيد الأنام.

إن التركيز على معركة ذي قار ليس من قبيل الترف الفكري أو المتاع العقلي، وإنما لما فيها من الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من أحد أبرز المعارك التي رسمت خطأ فاصلاً في العلاقات الإقليمية بين العرب والفرس.

فذي قار تعدُّ حدثاً جامعاً مانعاً ارتقى بمجموعة من المعاني وسما بمجموعة من الخلاصات التي يمكن اعتبارها مرجعاً لكل باحث في التاريخ أو الاستراتيجية أو العلاقات الاجتماعية على السواء.

وفي هذا الصدد، وبعد أن بسطنا القول بالرصد والتحليل، للدروس التي يمكن استخلاصها من المعركة، ومفاتيح النصر العربي على الفرس، لابد أن تكمل مربعات الصورة من خلال تفكيك بيئة -ما بعد ذي قار- وما خلّفتها من إعادة رسم التوازنات في المنطقة.

إن الاستعلاء العرقي للفرس جعلهم لا يتوقعون نتيجة معركة سيكون لها ما بعدها في تغيير المعادلة الاستراتيجية في المنطقة. وخاصة مع دخول فاعل موحد جديد، وهو دين الإسلام، الذي كان عاملاً مساعداً في مواجهة كل نظام عرقي يرى في استئصال العرب ضرورة وجودية.

بعد تكبد كسرى خسارة فادحة، ومهينة له ولهيبته وجيشه، لم يكن أمامه من هدف بعد هذه المعركة إلا إنقاذ ماء وجه حكمه، حيث سارع إلى عزل إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة وعين عليها حاكماً فارسياً، وناور لكي يعيد الوضع السابق في السيطرة الفارسية -على الأقل- إلى ما كان عليه قبل المعركة.

ويمكن القول بأن انتصار العرب في ذي قار لم ينعكس فقط على إحساسهم بقوتهم متى ما توحدت لحمتهم، وإنما "بداية عهد لتحرير العرب، أعقبها ذهول في الفرس يدل على تقلص حكمهم ونزولهم إلى أحط الدرجات، والباحث يرى أن من أهم آثار هذه المعركة إزالة خوف الفرس من قلوب العرب، ورفع معنوياتهم النفسية وإضعاف معنويات الفرس".

إن معركة ذي قار ستظل محطة لاستخلاص الدروس واستقراء العبر، وكان يمكن أن تلهم استراتيجيين كباراً من أمثال الفرنسي أردان دوبيك الذي ألف كتاباً بعنوان "فن المعركة"، يؤكد من خلاله على أن الحروب هي -في الأساس- حرب إرادات وأن صاحب الإرادة القوية الصلبة هو الذي ينجح وينتصر بغض النظر عن تكافؤ موازين القوى.

ذاق الفرس في ذي قار أول هزيمة لهم على أيدي العرب "وكان ذلك حافزاً أيقظ ثقة العرب بأنفسهم وجرأهم وهبهم لساعة قريبة أعدها لهم التاريخ وأعدّهم لها... والتاريخ يزن الإرادات ويعتبرها، ولكن له في النتائج إراداته الخاصة، والبرهان أن يوم ذي قار كان مفاجأة للفرس، كما كان مفاجأة للعرب، وغير يسير أن نحكم أي المفاجأتين كانت أشدّ وأعظم".

ويمكن الجزم بأن معركة ذي قار أبرزت للفرس دهاء العرب وذكاءهم في إدارة المعارك والحروب، كما يمكن أن تشكل مصدر إلهام للعرب في وقتنا الحاضر من خلال ضرورة "تناسي خلافاتهم وتوحدتهم اتجاه العدو الخارجي خاصة عندما يدركون أن وجودهم وقيمهم تصبح مهددة، وقد برز هذا الحس القومي واضحاً في معركة ذي قار فذكر أبو عبيدة (إن أسرى من تميم كانوا في بكر بن وائل قريباً من مائتي أسير فقالوا: خلوا معنا نقاتل معكم فإنما نذب عن أنفسنا".

كانت معركة النخوة العربية والدفاع عن الشخصية المبنيّة على الشرف والإباء

وبما أن نخوة العرب ودفاعهم عن شرفهم شكّل جزءاً أصيلاً من الشخصية الرئيسة للعرب، فإن ذي قار كانت انتفاضة عربية ضد أي مساس بشرف المرأة العربية، إذ لم يجرؤ بعدها الفرس على التناول على بنات العرب مرة أخرى.

هي دروس في الحرب والمناورة والتكتيك والاستراتيجية والوحدة العربية والارتقاء بمعاني النخوة والشرف...كلها معاني لخصتها معركة ذي قار التي يجب العودة إليها بمزيد من التأمل.

1) خالد الدوري، المقاومة العربية للنفوذ الساساني في الحيرة من 226م إلى موقعة ذي قار، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت (2003).

2) عبد الوهاب عزام، الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والإسلام (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2012).

3) هوما كاتوزيان، الفرس: إيران في العصور القديمة والوسطى والحديثة، ترجمة: أحمد حسن المعيني (بيروت: دار جداول، 2014).

4) جواد علي، المٌفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 4 (بيروت: دار الساقى، 2001).

5) رثيف خوري، مع العرب في التاريخ والأسطورة (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2019).

